

المحاضرة الرابعة/ البلاغة والأسلوبية

لقد بدأ مع مطلع القرن العشرين اهتمام كبير بعلم اللغة واللسانيات، ثم سرعان ما امتد هذا الاهتمام ليشمل حقل الأدب والإبداع الأدبي بوصفه نصوصاً ذات بنية لغوية في الأصل.

وكان من نتائج هذا الاهتمام نشوء علم جديد يبحث في لغة النصوص الأدبية عرف بـ"الأسلوبية"، فأصبح منهجاً ومُدخلاً للنصوص الأدبية لتحديد خصائصها وسماتها الجمالية.

وتعد الأسلوبية من المناهج الحديثة للنقد الأدبي في العصر الحديث، والتي يرى بعض الباحثين أنها الوريث الشرعي الوحيد للبلاغة القديمة.

ولهذا العلم الحديث جذور في تراثنا النقدي والبلاغي؛ حيث إن معظم قضاياها وتصوراته ترجع -في أغلبها- إلى الأسلوب، كما قدم النقد العربي القديم تفكيراً أسلوبياً ناضجاً لم تغب عنه أبرز القضايا التي يثيرها البحث الأسلوبي.

فقد بحث القدامى في طرق التعبير في القرآن الكريم لإثبات أوجه إعجازه كما ذكرنا، ثم التفتوا للشعر العربي مبينين طرق تعبيره لإثبات أوجه إبداع منتجه، ومن خلال دراسة هذه الأساليب نشأ علم البلاغة وتطور عند القدامى إلى عبد القاهر الجرجاني كما رأينا في المحاضرة السابقة عند حديثنا عن نظرية النظم. وكانت البلاغة القديمة التي حولت الأسلوب كفن وليس كعلم، تناولت مباحثها الأسلوب من خلال ثلاثة أبواب هي المعاني التي تعنى بدراسة الجمل، وما في حكمها (التركيب اللغوية). والبيان الباب الثاني الذي يدرس الصور البلاغية بأنواعها (تشبيهات، مجازات، كنايات.. الخ). والباب الثالث البديع الذي تناولوا فيه توابع البابين السابقين كمكملات للإبداع الفني.

الأسلوبية ونشأتها/

ترجع بوادر الأسلوبية إلى العالم اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير واضع علم اللسانيات، والذي استطاع التفريق بدقة بين اللغة والكلام، إذ فرّق بين اللغة التي أطلق عليها القدرة (competence)، والتي هي عبارة عما يحتزنه أفراد الجماعة اللغوية الواحدة في أذهانهم، وبين الكلام (parole) وهو ما ينتج من هذه القدرة من كلام محسوس في شكل أصوات أو مكتوب. فاللغة حينما تتحول من قدرة ذهنية إلى شكلها المحسوس (الكلام) الذي هو وسيلة التفاهم بين الجماعة الإنسانية، فاللغة في شكلها المحسوس (الكلام) هي وسيلة الخطاب العامة التي يشترك فيها الجميع.

ثم أتى تلميذه المختص في السنسكريتية واليونانية الباحث اللساني شارل بالي، ليشرح مفاهيم دي سوسير في اللسانيات، ليعكف بعدها على دراسة الأسلوب، فكان هو أول من أرسى قواعد الأسلوبية المعاصرة منذ سنة ١٩٠٢م.

وقد عرف بالي الأسلوبية بأنها علم يُعنى بدراسة وقائع التعبير في اللغة المشحونة بالعاطفة والمعبرة عن الحساسية الشعورية، فنجدته قد حصر البحث الأسلوبي في الجانب الوجداني للغة وبالتالي في تعبيريتها.

تكثر تعريفات الأسلوبية في الكتب المختصة بهذا المجال، وهي متباينة من حيث صياغتها ومنطقتها، ويمكن تلخيص تلك التعريفات للأسلوبية بصياغة شاملة وهي: (العلم الذي يكشف عن القيم الجمالية في الأعمال الأدبية إنطلاقاً من تحليل الظواهر اللغوية والبلاغية للنص الأدبي، تركز على دراسة الخصائص التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفة تأثيرية وجمالية، فهي تبحث عن ما يتميز به المستوى الفني عن بقية مستويات الخطاب).

وقد سبق مصطلح (الأسلوب Style) مصطلح (الأسلوبية Stylistics) في الظهور؛ حيث ظهر الأول في القرن الخامس عشر الميلادي، أما الثاني فقد ظهر في بداية القرن العشرين مع ظهور الدراسات اللغوية الحديثة على أيدي العلماء اللغويين الألمان والفرنسيين.

وهما مصطلحان مختلفان، إذ يعنى الأسلوب بدراسة الأنماط اللغوية المتنوعة. أما الأسلوبية فتتكون الكلمة من جزأين الأول (أسلوب style) التي تشير إلى مدلول إنساني ذاتي نسبي. ثم يأتي الجزء الثاني وهو اللاحقة (istics) ، وجاءت هذه اللاحقة (المصدر الصناعي) لتعطي المصطلح (الأسلوبية Stylistics) بعده العلمي العقلي، والموضوعي. أي علم الأسلوب.

المبادئ العامة لتحليل الأسلوب/

ينطلق الأسلوبيون في تحليل النص الأدبي من مجموعة من المبادئ وهي المبادئ الرئيسة التي تشكل المنهج الأسلوبي، والشكل التالي يوضح هذه المبادئ:

أولاً: مبدأ الاختيار.

وقد درج الأسلوبيون على تقسيم الاختيار على النحو التالي:

- ١- الاختيار النحوي: وهو اختيار المتكلم أو الكاتب كلمة وتفضيلها على أخرى لأنها أكثر تعبيراً عن المعنى، أو أكثر تلائماً مع القاعدة النحوية، ومن أمثلة هذا النوع من الاختيار "الفصل والوصل"، "والتقدم والتأخير"، و"الذكر والحذف" وغيرها.
- ٢- الاختيار النفعي: وهو اختيار كلمة دون غيرها لتفادي رد فعل معين من السامع أو القارئ، أو لأن اللفظ المختار أكثر انسجاماً مع الموقف أو السياق، على سبيل المثال اختيار كلمة "استشهد" لأنها أكثر انسجاماً من "مات" أو "قتل" في مقام المقاومة.
- ٣- الاختيار السياقي: وهو اختيار كلمة تؤدي معنى جديد في سياق محدد وأكثر أمثلة هذا النوع في الاستعارة.

ثانياً: مبدأ الانزياح أو العدول.

والانزياح أو العدول في الأسلوبية الحديثة يعني خروج الكاتب عن المعايير اللغوية بما يسمح به نظام اللغة، وهذا المفهوم يتفق مع نظرية النظم عند الجرجاني التي تدعو الكاتب أو الشاعر أن يختار الأسلوب النحوي المناسب للسياق أو المقام، فقد يستدعي السياق تقديماً أو تأخيراً أو حذفاً أو تعريفاً أو تنكيراً أو غير ذلك، وينبغي للمبدع أن يتصرف بقواعد النحو وفق مقتضيات السياق والمقام بشرط أن يحافظ على صحة الإعراب وما يقتضيه نظام اللغة.

ثالثاً: السياق.

قسم بعض الباحثين السياق إلى أربعة أنواع، وهي: السياق اللغوي، والسياق العاطفي، وسياق الموقف، والسياق الثقافي؛ فالسياق اللغوي يعني اختيار الالفاظ المناسبة للسياق، أما السياق العاطفي فيعني التوافق بين البعد النفسي للكاتب وما يختاره من ألفاظ وأساليب، وأما سياق الموقف فهو المقام أو المناسبة أو الحدث الذي يعبر عنه النص، وأما السياق الثقافي فهو البيئة الثقافية التي ينتمي إليها المبدع أو المتلقي.

وبتحدد المنهج الأسلوبي وفق خمسة اتجاهات/

١- الأسلوبية الصوتية:

وهي التي تهتم بالأصوات و الإيقاع و العلاقة بين الصوت و المعنى.

٢- الأسلوبية الوظيفية:

وتهتم بدراسة العدول أو ما يسمى بالانحراف أو الانزياح.

٣- الأسلوبية التعبيرية:

وكان رائدها بالي الذي شق الطريق للتفريق بين أسلوبين أحدهما ينشد التأثير في القارئ والآخر لا يعنيه إلا إيصال الأفكار بدقة . وطور تلاميذه هذا الاتجاه عن طريق التوسع في دراسة التعبير الأدبي، فالكاتب لا يفصح عن إحساسه الخاص إلا إذا أتاحت له أدوات ملائمة، وما على الأسلوبي إلا البحث عن هذه الأدوات.

٤- الأسلوبية الإحصائية:

تقوم على دراسة ذات طرفين، أولهما: هو التعبير بالحدث، و الثاني هو التعبير بالوصف، ويعني بالأول الكلمات أو الجمل التي تعبر عن حدث و بالثاني الكلمات التي تعبر عن صفة، ويتم احتساب عدد التراكيب و القيمة العددية الحاصلة تزيد أو تنقص تبعاً لزيادة أو نقص عدد الكلمات الموجودة في هذه التراكيب، وتستخدم هذه القيمة في الدلالة على أدبية الأسلوب والتفريق بين أسلوب كاتب وكاتب.

فمثلاً كتاب " الأيام" لطله حسين تبين مثلاً أن نسبة الجمل الفعلية إلى الوصفية ٣٩% في حين أن نسبة تكرار هذه الجمل في كتاب "حياة قلم" للعقاد لا تتعدى ١٨% ، ومعنى ذلك أن كتاب الأيام أقرب إلى الأسلوب الانفعالي و الحركي من كتاب العقاد الذي يميل فيه إلى الطابع الذهني العقلاني.

٥- الأسلوبية النحوية:

تهتم بدراسة العلاقات والترايط والانسجام الداخلي في النص وتماسكه عن طريق الروابط التركيبية المختلفة، ومن هذه العلاقات: استخدام الضمائر والعطف والتعميم بعد التخصيص... وهذه العلاقات يلجأ إليها الكاتب لتنظيم جملة بعضها إلى جانب بعض مما يؤدي إلى تماسكها و ترابطها.

المشترك بين البلاغة والأسلوبية:

تعد البلاغة في الدرس اللغوي الحديث جزءاً لا يتجزأ من الدرس الأسلوبي، فالأسلوبية امتداد للبلاغة تشكلت عبر تاريخ الدرس اللغوي، والبلاغة بعلموها الثلاثة -البيان والمعاني والبديع- تكون مظهراً من المظاهر الأسلوبية -إن لم يكن أهمها- مقارنة بالمستوى الإيقاعي والمستوى النحوي مثلاً.

وقد تجددت البلاغة منذ بداية القرن التاسع عشر فكانت عاملاً في وجود الأسلوبية، وهي علم للتعبير وعلم للأدب في آن واحد، وهناك من عدّ الأسلوبية بلاغة حديثة؛ إذ البلاغة في خطوطها العريضة تكون فناً للكتابة وفناً للتأليف (فن لغوي وفن أدبي)، وهما سمتان قائمتان في الأسلوبية، ومن هنا كانت المقولة المعروفة (البلاغة هي أسلوبية القدماء).

هناك أوجه اتفاق كثيرة بين علم الأسلوب وعلم البلاغة كما توجد أوجه اختلاف، ولعل الوقوف على هذه الفروق يوضح لنا ويجلي مدى العلاقة والاتصال بين علم الأسلوب والبلاغة .

فأما أوجه الاتفاق فهي كما يأتي :

١- أن كلا منهما نشأ منبثقا من علم اللغة وارتبط به .

٢- أن مجالهما واحد وهو اللغة والأدب.

٣- كما أنهما يلتقيان في أهم مبدئين في الأسلوبية هما: العدول والاختيار.

٤- يرى بعض النقاد أن الأسلوبية وريثة البلاغة وهي أصل لها.

٥- تلتقي الأسلوبية مع البلاغة في نظرية النظم ، حيث لا فصل بين الشكل والمضمون كما أن النص لا يتجزأ .

٦- البلاغة تقوم على "مراعاة مقتضى الحال" والأسلوبية تعتمد على "الموقف" وواضح ما بين المصطلحين من تقارب .

أما أوجه الاختلاف فهي على النحو الآتي:

١- علم البلاغة علم لغوي قديم أما علم الأسلوب فحديث.

٢- البلاغة تدرس مسائلها بعيدا عن الزمن والبيئة أما الأسلوبية فإنها تدرس مسائلها بطريقتين :

- طريقة أفقية . أي علاقات الظواهر بعضها ببعض في زمن واحد .

-طريقة رأسية . أي تطور الظاهرة الواحدة على مر العصور.

٣-عندما تدرس البلاغة قيمة النص الفنية فإنها تحاول أن تكشف مدى نجاح النص المدروس في تحقيق القيمة المنشودة ، وترمي إلى إيجاد الإبداع بوصاها التقييمية .

أما الأسلوبية فإنها تعلق الظاهرة الإبداعية بعد إثبات وجودها وإبراز خواص النص المميزة له.

٤-من حيث المادة المدروسة فالبلاغة توقفت عند الجملتين كحد أقصى في دراستها للنصوص ، كما أنها تنتقي الشواهد الجيدة وتجزئها .

أما الأسلوبية فتتطرق إلى الوحدة الجزئية مرتبطة بالنص الكلي وتحلل النص كاملا.

٥-البلاغة غايتها تعليمية تركز على التقويم ، أما الأسلوبية فغايتها التشخيص والوصف للظواهر الفنية .

وبعد هذه المقارنة بين البلاغة والأسلوبية يتضح لنا أنه لا تعارض بينهما وأن الأسلوبية استفادت من البلاغة كثيرا بل إن الأسلوبية لم تنهض إلا على أكتاف البلاغة ولكنها تقدمت عليها في مجال علم اللغة الحديث ولو أن هذا التقدم لا يصعب على البلاغة أن تحوزه إذا ما استفادت من مبادئ وإجراءات علم اللغة الحديث وعلم الأسلوب والمناهج الألسنية بعامة .

بل إن البلاغة وبما تملكه من إمكانيات علمية ثابتة وقواعد راسخة وما بذله لها علماء البلاغة قديما وحديثا قادرة على خلق نظرية حديثة متطورة تفوق كل النظريات السابقة إذ ما التزمت بأساسها واستفادت من التطور العلمي الحديث ويظهر هذا فيما قدمه عبد القاهر الجرجاني للبلاغة من تطور بنظريته المشهورة التي قفزت بالبلاغة إلى درجات لم تصل إليها اللغات الأخرى إلا في هذا العصر فلو وجدت البلاغة من يكمل المسير الذي سار عليه عبد القاهر لما تأخرت في هذا العصر وبقيت مرمى سهام الحاقدين على العربية وأهلها .